مجلة بادر
المُحكّمة لعلم النفس الإسلامي

مراجعة كتاب "مدخل إلى علم النفس الإسلامي"
للدكتور محمد محمود مصطفى

د. سعيد الشوية
chouiamaster@hotmail.fr

ملخص.

يعتبر كتاب "المدخل إلى علم النفس الإسلامي" إضافة نوعية في بناء هذا العلم، ومحاولة مؤسسة سعت إلى تأصيله انطلاقا من النصوص الشرعية، ووضع بعض أسسه انطلاقا من الممارسة الفعلية، وقد طاف فيه المؤلف بالقارئ حول جملة من موضوعات علم النفس، بدءا بالحديث عن النظرية المعرفية وتعريف علم النفس عموما وعلم النفس الإسلامي خاصة، ومرورا بالحديث عن نظرة الأديان إلى النفس البشرية وأهم أقسام علم النفس، وانتهاء بالحديث عن الشخصية وأهم نظريات دراستها والعوامل المؤثرة فيها، وبالحديث عن أهم الشبهات والاعتراضات التي توجه إلى فكرة علم النفس الإسلامي والرد عليها.

الكلمات المفتاحية: النفس، علم النفس الإسلامي، الشخصية، النظرية المعرفية، الإسلام.

Review of the book "Introduction to Islamic Psychology"

by Dr. Mohamed Mahmoud Moustafa

Dr. Said chaouia

chouiamaster@hotmail.fr

Abstract.

The book "Introduction to Islamic Psychology" is considered a qualitative addition to the construction of this science, and an attempt by an institution that sought to establish it based on religious texts, and to establish some of its foundations based on actual practice. In it, the author took the reader on a tour around a number of topics in psychology, starting with talking about cognitive theory and defining psychology in general and Islamic psychology in particular, passing through talking about the view of religions on the human psyche and the most important sections of psychology, and ending with talking about personality and the most important theories of its study and the factors influencing it, and talking about the most important doubts and objections directed at the idea of Islamic psychology and responding to them.

Keywords:

Psychology, Islamic Psychology, Personality, Cognitive Theory, Islam.

تقديم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه ومن والاه، وبعد، شاءت حكمة الله تعالى أن خلق الإنسان وكرمه بالعقل، وأرشده إلى إعماله بدعوته إلى التفكر في كتابه والتأمل في مخلوقاته، أي: النظر إلى الكون وما فيه، وإلى النفس الإنسانية وما هي، ومم تكونت؟ فقال سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق/5)؛ وقال كذلك: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات/21)؛ وقال أيضا: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (الروم/8). ففي هذه الآيات وغيرها دعوة إلى التفكر في النفس الإنسانية ودراستها والتعرف على مكنوناتها وسننها؛ وذلك قصد حفظها ودرء كل ما من شأنه أن يفوتها؛ لأن حفظ النفس الإنسانية من مقاصد الشريعة الإسلامية، فهي ضرورة من الضروريات الخمس، التي جاءت الشريعة بحفظها من جانبي الوجود والعدم، ولا يكون حفظها من الجانب المادي فقط، بل لا بد من حفظها كذلك من الجانب المعنوي؛ لأن الإنسان ليس جسدا ماديا فحسب، ولكنه كيان روحي نفسي، فحفظه لا يكون إلا بحفظ هاذين الجانبين معا؛ لهذا دعى الإسلام إلى حفظ النفس معنويا كحفظها ماديا. وقد استجاب العلماء منذ فجر الإسلام إلى هذه الدعوة الربانية والتوجيهات القرآنية لدراسة النفس والنظر فيها وكشف سننها؛ فظهرت دراسات نفسية من منظور إسلامي، منها: كتاب الطب الروحاني لأبي بكر الرازي، وهو كتاب في طب النفوس، وكتاب أحوال النفس لابن سينا، بالإضافة إلى ثلاث رسائل في النفس له، الرسالة الأولى في القوى النفسانية، والرسالة الثانية في معرفة النفس الناطقة وأحوالها، والرسالة الثالثة في الكلام على النفس الناطقة، وكتاب مصالح الأبدان والأنفس لأبي زيد البلخي، وكتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم الظاهري الأندلسي، وكتاب معارج القدس في مدارج معرفة النفس للإمام الغزالي، وشرح ابن رشد الكبير لكتاب النفس لأرسطو. ومنهم من خصص جزءا من كتاب للحديث عن النفس ودراسة أحوالها، ككتاب ثمرة الحكمة لابن الهيثم، الذي استهله بالحديث عن القوى النفسانية الثلاثة التي يعتبر البدن آلة لها، وهي: القوة الشهوانية، والقوة الغضبية، والقوة الناطقة.

وبعد نشأة علم النفس الغربي واستقلاله عن الفلسفة في منتصف القرن التاسع عشر وانتشار تدريسه في مختلف البلدان الإسلامية، وشعور الكثير من علماء النفس المسلمين بالأزمة في التعامل مع هذا العلم ذي المنظور الغربي، ظهرت دعوات إلى صياغة علم النفس صياغة إسلامية، وذلك بتنقيته مما يخالف مقاصد الشريعة ويفوتها، والتأصيل لما يوافقها ولا يعدمها، مع الإفادة من هدي الكتاب والسنة، والاستفادة من التراث الإسلامي في الدراسات النفسية، أي: تأصيل الوافد وتحديث الموروث.

وقد مضى على نشأة هذه الدعوة زمن طويل، إذ كان صداها يتردد باستمرار في أروقة البحث العلمي، لكن في الآونة الأخيرة ازدادت العناية بهذه الدعوة، وتطورت إلى حركة فكرية تحمل هَمَّ مشروع واضح المعالم، أنشئت لتحقيقه مراكز وجمعيات ومعاهد كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الذي أنشئ في أمريكا عام 1401هـ/1981م؛ للعناية بأسلمة المعرفة عامة والعلوم الإنسانية خاصة، بالإضافة إلى مبادرات شخصية ظهرت في شكل بحوث تروم التأصيل لعلم النفس الإسلامي، ككتاب "المدخل إلى علم النفس الإسلامي" لعميد كلية علم النفس الإسلامي الدكتور محمد محمود مصطفى، الذي يعتبر لبنة أساسية في بناء هذا العلم وتأسيس عمارته، وهو كتاب يقارب عدد صفحاته 300 صفحة، من طبع ونشر مكتبة الأسرة العربية، صدرت طبعته الأولى سنة 2023م بإسطنبول.

أولا: غاية الكتاب.

إن الغاية من هذا الكتاب واضحة من عنوانه قبل مضمونه، فهو يروم الإسهام في وضع اللبنة الأساسية والقوام الأصيل والمخرجات الفرعية لعلم النفس الإسلامي، من حيث مصطلحاته ومصادره، وتفسيراته وممارساته... فهو بمثابة إضاءة على طريق هذا العلم، ومشاركة في فتح أبوابه على مصراعيها للباحثين المسلمين في علم النفس وعلم الاجتماع؛ للإدلاء بدلوهم والإسهام بمعارفهم وعلومهم في بناء عمارة علم النفس الإسلامي، مظهرين فيه تفرد المسلمين في هذا العلم وسبقهم في تحقيق كثير من القواعد والأسس التي بني عليها علم النفس الغربي.

وقصد تحقيق هذه الأهداف والغايات السالفة الذكر، والمتعلقة بعلم النفس الإسلامي، فإن المؤلف احتاج إلى فتح الباب لتحرير مصطلحات إسلامية نفسية تعد بمثابة العمدة والأساس في علم النفس الإسلامي، لكنه وجد نفسه بين مقاربتين مختلفتي المنهج، ومتفقتي الهدف والمقصد. الأولى: تتعلق بالممارسة، وهي التي تؤدي إلى ضبط المصطلحات وتحرير التعريفات، فيكون التطبيق العملي والممارسة الفعلية الواقعية هي النواة التي تنتج التعريفات والحدود ومعايير العلم وفروعه. والثانية: تتعلق بضبط المصطلحات وتحرير الحدود والتعريفات، مما يؤدي إلى ظهور نظريات وحقائق وتقنيات يمكن استثمارها في الممارسة الفعلية لنفع المجتمع وخدمته.

وقد مال المؤلف إلى المقاربة الثانية للخلفية الشرعية التي تنادي بأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وأن التعريفات هي الباب الأكبر لتحرير فروع أي علم، وأن الاهتمام بالأصول وضبطها أولى من الفرع؛ لأن الأصل

إن صح، صح الفرع غالبا. وميل المؤلف إلى المقاربة الثانية لا يعني رفض المقاربة الأولى، بل قبلها، لكن وفق قاعدة متينة وأصيلة، وهي أن تكون الممارسات منضبطة بشروط يتم التقعيد لها، حتى لا يتحول الناس والمؤسسات النفسية إلى معامل تجريبية بلا ضابط ولا هوية.

ثانيا: عرض إجمالي لمباحث الكتاب وطريقة المؤلف فيه.

قسم الدكتور محمد محمود مصطفى كتابه "المدخل إلى علم النفس الإسلامي" إلى ستة فصول، وقد خصص الفصل الأول للحديث عن نظرية المعرفة، التي تعتبر من أمهات المسائل الفلسفية التي تدخل ضمن المدخل العام للفلسفة ومقدماتها، ومن خلالها يجيب الإنسان عن جملة من الأسئلة، من مثل: ماذا نعرف؟ وكيف نعرف؟ وما قيمة ما نعرف؟ وإلى أي مدى يتسع النطاق المعرفي لدينا؟ ماذا سنصنع بما نعرف؟ ومجمل ما تبحث فيه هذه النظرية هي وصف ما يسمى بالنموذج المعرفي، الذي هدفه البحث في جملة أمور، منها: الذات العارفة، وموضوع المعرفة، وحدود هذه المعرفة.

وقد تحدث الكاتب في هذا الفصل عن النظرية المعرفية الغربية، أي النموذج المعرفي للحضارة الغربية، الذي يقوم على المذهب المادي، وهو مذهب يرد كل شيء إلى المادة وبها يفسر كل الموجودات، إلى درجة أنه ينظر حتى إلى الإنسان نظرة مادية، ويعتبره ظاهرة مادية، دون اعتبار للجانب الروحي فيه، على خلاف النظرية المعرفية الإسلامية، التي ختم بها هذا الفصل، وهي نظرية مبنية على الرؤية المعرفية الكلية التي يقدمها الإسلام للألوهية والطبيعة والكون والوجود الإنساني. وهذه النظرية المعرفية الإسلامية تتميز بجملة من الخصائص، منها: الشمولية والتكامل المعرفي بين العلوم، واقتران العلم بالعمل، ومقاصدية المعرفة، وتخليق العلوم والمعارف.

أما الفصل الثاني، فقد أفرده المؤلف لتعريف علم النفس عموما وعلم النفس الإسلامي على وجه الخصوص، حيث استهله بالحديث عن معنى النفس في القرآن الكريم، وفي كلام العرب، وعند العلماء والفلاسفة المسلمين، وعند الذين ألفوا في علم النفس الإسلامي، وقد انتهى المؤلف إلى خلاصة وصف فيها النفس بأنها مجموع الفرد، أي: الأفكار والمشاعر والسلوكيات والقيم، وتتألف من جميع الصفات المميزة للإنسان عن غيره من المخلوقات، واعية وغير واعية، وعقلية وجسدية، بصرف النظر عن مرجعيته الأساسية للهوية الشخصية، والوجود، والخبرة المتراكمة.

وبعد عرض المؤلف لبعض تعاريف الباحثين للنفس وعلم النفس، خلص – حسب فهمه وتجربته – إلى أن علم النفس عموما هو دراسة الإنسان، كيف يفكر؟ وكيف يتصرف؟ وكيف يشعر بالمشاعر؟ وما هي منظومة القيم التي تحكم هذه الأركان الثلاثة؟ وكيف تؤثر هذه الأركان الثلاثة على بعضهم، سواء في علاقتنا مع بعضنا ومع الآخرين. بمعنى إدراك حقيقة النفس من حيث وجودها وأفكارها ومشاعرها وسلوكها وقيمها، وما يعتريها من أحوال، فيشمل التأثيرات البيولوجية والضغوط الاجتماعية والعوامل البيئية التي تؤثر على طريقة تفكير الناس وتصرفهم وشعورهم.

وختم هذا الفصل، باقتراح تعريف لعلم النفس الإسلامي، وهو رصد سلوك وأفكار ومشاعر الإنسان، وفهمها وتحليلها وتوقعها والسيطرة عليها بتوجيهها وفق نظرة الإسلام، أي: الدراسة للنفس أو العقل أو الشعور من منظور إسلامي، وتتناول هذه الدراسة علم النفس وعلم الأعصاب وفلسفة العقل، والطب النفسي وعلم المناعة العصبية.

وفي الفصل الثالث، ناقش المؤلف نظرة الأديان والمذاهب الأخرى للنفس، واستغل الفرصة لذكر بعض الممارسات القبيحة القادحة في فهم النفس وأحوالها، كعادة التطبير التي ابتدعها الشيعة الاثنا عشرية والإمامية، والتي تبدأ مشاهدها منذ دخول ليلة عاشوراء، حيث يعملون على تعذيب أنفسهم بالضرب بالسكاكين والسيوف للكبير والصغير؛ تأسفا على مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه. كما عمل المؤلف على ذكر مذاهب العلماء في الأصل في النفس البشرية هل هو الشر أم الخير؟ فالمذهب الأول ذهب إلى أن الأصل في الإنسان الشر، والثاني ذهب إلى أن الأصل فيه الخير، بينما توسط الثالث، واعتبر الإنسان حياديا بين الخير والشر.

ثم بعد ذلك ذكر أقسام النفس، والتي قسمها العلماء في الغالب إلى ثلاثة أقسام، وهي: النفس الأمارة، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة. وعلى أساس هذا التقسيم انقسم البشر إلى ثلاثة أنواع: نوع أول هو كالشيطان يركد بكل شر وفساد، ونوع ثان كالحيوان ليس له هم إلا قضاء شهواته، ونوع ثالث كالملائكة يعبدون الله، ويطيعونه. وكان من بين ما ختم به المؤلف هذا الفصل الحديث عن نظرة الإسلام للنفس الإنسانية، وهي نظرة تقر بأن حقيقة التوحيد مركوزة في الفطرة الإنسانية، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها، عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى والضلال. بمعنى أن النفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالألوهية، محبة له، تعبده لا تشرك به شيئا، ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل.

وأما الفصل الرابع، فقد أفرده المؤلف للحديث عن أقسام علم النفس، والتي ذكر منها: علم النفس السريري، وعلم النفس المعرفي، وعلم النفس التنموي، وعلم النفس التطوري، وعلم النفس الشرعي، وعلم النفس الصحي وعلم النفس العصبي، وعلم النفس المهني، وعلم النفس الاجتماعي. ثم أتبع أنواع علم النفس هاته بمناقشة مسألة علم النفس الإسلامي، هل هو أصل أن فرع؟ بالإضافة إلى مناقشة قضايا أخرى، كالمباني المنهجية، ومعايير التفسير النفسي للدين، والنماذج التفسيرية للديانة، والتدين كعملية متعددة الأبعاد، والتدين ونظامه التحفيزي. وختم المؤلف هذا الفصل بذكر مصادر المعرفة، والمتمثلة أساسا في الوحي، والفطرة، والعقل، والتجربة، والحس.

وفي الفصل الخامس، تحدث المؤلف عن الشخصية، بدءا بتعريفها على أنها الأنماط المميزة للأفكار والمشاعر والسلوكيات التي تجعل الشخص فريدا، ومرورا بذكر نظريات دراستها، كالنظرية الطبيعية، والنظرية المورفولوجية، والنظرية الاجتماعية، والنظرية التحليلية... وكذا بذكر الاتجاهات الحديثة في دراساتها. وانتهاء بالحديث عن العوامل المؤثرة فيها وفي تكوينها، كالوراثة، والبيئة، والوضع الاقتصادي، والعامل الجسدي، والعامل العقلي، والعامل النفسي.

وأما الفصل السادس، فقد خصصه المؤلف لذكر شبهات أثيرت حول علم النفس الإسلامي ومحاولته الإجابة عليها. فبعد أن أكد الدكتور على أن علم النفس ليس بدعة جديدة في الدين أو الحياة، ذكر أوجه الاعتراضات على فكرة علم النفس الإسلامي والشبهات التي تثار حوله؛ منها ما هو متهافت وعبارة عن ترهات لا تقوى في معرض النقاش العلمي، ومنها ما هو تعبير عن العداء للدين الإسلامي وأفكاره، ومنها ما هو محاولة لحماية الدين مما يظن أنه من العبث بأحكامه وأصوله، ومنها ما هو محاولة لحماية علم النفس من إقحام الدين فيه. وقد عمل المؤلف على الرد على هذه الشبهات والإجابة على هذه الاعتراضات التي وجهت إلى علم النفس الإسلامي.

ثالثا: نقط القوة في الكتاب.

أ- كون كاتبه من أهل الاختصاص: إن المطلع على السيرة العلمية للمؤلف الدكتور محمد محمود مصطفى يجده أهلا للكتابة في هذا المجال، أي مجال علم النفس الإسلامي؛ لأنه من أهل الاختصاص الممارسين لعلم النفس والذين خبروه من خلال تجربتهم الطويلة في هذا المجال، فقد عمل لعدة عقود على الممارسة العلمية لعلم النفس العلاجي والسلوكي والتحليلي، بل أكثر من ذلك ألف في بعض فروعه، كبحث "الصلابة النفسية

وعلاج الهشاشة النفسية"، و"اضطراب الشخصية المزورة" في علم النفس العلاجي، و"بدونك سأموت" في التعامل مع الشخصية النرجسية، و"أسرتي أولا"، و"ترجمة الصمت"، و"زواج مع وقف التنفيذ" في الإرشاد الزوجي، و"الزلزال الناعم" في الإرشاد النفسي، وغيرها من الدراسات والأبحاث النفسية.

ب - **كون كاتبه جمع بين علمي النفس والشريعة:** وهذا من الشروط التي يقتضيها البحث والتأليف والتخصص في هذا علم، وقد اشترط المؤلف في بداية كتابه هذين الأمرين، واعتبرهما أمرين أساسيين للباحث والمتخصص في علم النفس الإسلامي، إذ بهما يحقق الغاية والهدف منه من جانبي التأصيل النظري والتطبيق العملي.

الأمر الأول: التمكن من العلوم الشرعية، وذلك بالتمكن من أصولها الأساسية من قرآن وسنة وقياس وإجماع وغير ذلك من الأدلة المعتبرة شرعا، بالإضافة إلى التمكن من أوجه الاستنباط والاستدلال، ومفاهيم الأدلة، ومقاصد الشريعة، والأحكام الفقهية المتعلقة بمكونات المجتمع على المستوى الفردي والجماعي.
والأمر الثاني: التمكن من العلوم النفسية وكذا الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ، وخصوصا علم النفس الحديث والعام بمختلف فروعه وتخصصاتها التي تعد بالعشرات، مع إتقان نظرياته وحقائقه، وخاصة التي لا تتعارض ومبادئ الشريعة ومقاصدها.

ج - **اعتراف المؤلف بصحة بعض نظريات وحقائق علم النفس الغربي:** إن الناظر في كتاب "المدخل إلى علم النفس الإسلامي" يجد أن مؤلفه الدكتور محمد محمود مصطفى لا ينكر فضل بعض الدراسات الغربية في مجال علم النفس، والتي لا تخالف الشريعة الإسلامية؛ ولهذا كان مما اشترطه على الباحث والمتخصص في علم النفس الإسلامي إتقان نظريات علم النفس الحديث والحقائق الثابتة منها، والتي يقرها الإسلام ويقبلها وفق منهج التجربة والملاحظة وغيرها من مناهج البحث. وهذا عين الصوب والحق؛ لأن علم النفس الحديث ينقسم باعتبار مخالفته لمقاصد الشريعة وموافقته لها إلى قسمين:

-قسم مخالف لمقاصد الشريعة الإسلامية ومناقض لها، ويمثل ذلك الجانب الفلسفي منه، أي: الجانب غير العلمي، وهو الجانب الثقافي الذي هو نتاج البيئة الغربية، وهي بيئة علمانية تنظر إلى الإنسان نظرة عِلمانية مادية، مغيبة كليا الجانب الروحي من الطبيعة البشرية، وهي بذلك بيئة مخالفة للبيئة الإسلامية، فلا شك في تأثر علم النفس بثقافة بيئته الغربية؛ لأن علم النفس يتأثر أيما تأثر بالمجتمع الذي أنتجه، ومن

ثَمَّ، فعلم النفس المستورد من الغرب يعبر عن خصائص البيئة الغربية التي أنتجته، وهي خصائص غير موجودة في العالم الإسلامي .

-قسم يوافق مقاصد الشريعة الإسلامية ولا يخالفها في الغالب، ويمثل ذلك الجانب التجريبي منه، أي: القسم العلمي التطبيقي الذي أنتجته المختبرات، كعلم النفس الإحصائي وعلم النفس الوراثي وعلم النفس الفسيولوجي وعلم نفس النمو وعلم النفس التربوي والإدراك الحسي... ففروع علم النفس هاته فروع علمية بحتة، مقبولة لدى الجميع تقريبا، ويتفق فيها كثيرا المسلمون مع علم النفس الغربي.

د - الاستفادة من التجارب والدراسات السابقة في مجال علم النفس والدراسات النفسية: إن المتصفح لكتاب مدخل إلى علم النفس الإسلامي يجد مؤلفه قد استفاد من الدراسات السابقة في مجال علم النفس عامة وعلم النفس الإسلامي على وجه الخصوص. ومن هذه الدراسات ما يخص دراسات في علم النفس الإسلامي لعلماء من أهل الاختصاص حملوا هم تأسيس وتأصيل علم النفس الإسلامي، ككتاب "أزمة علماء النفس المسلمين" للدكتور مالك بدري، وكتاب "الحديث النبوي وعلم النفس" للدكتور عثمان نجاتي، و"محاضرات في علم النفس الإسلامي" للدكتور فؤاد أبو حطب، وكذلك ما كتبه الدكتور إبراهيم رجب وغيرهم. ومن هذه الدراسات كذلك ما يتعلق بعلم النفس الحديث سواء قام بها علماء مسلمون، ككتاب "مجالات علم النفس" للدكتور مصطفى فهمي، وكتاب "مقدمة لعلم النفس الاجتماعي" للدكتور مصطفى سويف. أو قام بها علماء غربيون، كالطبيب النفسي السويسري كارل جوستاف يونج، وعالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية مارغريت ميد، وألكسيس كارل.

وحبذا لو أن الدكتور محمد محمود مصطفى أشار في كتابه هذا إلى دراسة أبي زيد البلخي (ت 322هـ)، الذي يعتبر من فرسان علم النفس الإسلامي أو مصالح الأنفس، وكتابه "مصالح الأبدان والأنفس" خير شاهد على ذلك، وقد وصفه الدكتور مالك بدري بالنفساني الذي سبق عصره بأكثر من عشرة قرون، نظرا لريادته في موضوع تدبير مصالح الأنفس؛ لأن المتخصص في الطب النفسي وعلم النفس السريري الحديثين - كما يقول الدكتور بدري - لا يكاد يصدق عينيه، وهي تتنقل بين صفحات هذا الكتاب المدهش، الذي يضم بين دفتيه أحدث ما توصل إليه علم النفس العلاجي المعاصر. ويضيف الدكتور بدري أنه لن يشك قارئ لفهرست هذا الكتاب على أنه لكتاب حديث في الصحة النفسية والعلاج النفسي، كما يؤكد على أن النفسانيين المسلمين لو قرأوا كتاب البلخي هذا بتدبر لكانوا هم الرواد للعلاج النفسي وللثورة المعرفية الحديثة في ميدان العلاج النفسي.

وأقترح على الدكتور محمد محمود مصطفى، لو تيسر له في طبعات أخرى للكتاب أن يشير إلى دراسة أبي زيد البلخي في تدبير الصحة النفسية، وخاصة في سياق حديث الدكتور عن العلاج المعرفي السلوكي، حين نص على أن هذا النوع من العلاج حاول أن يكتشف الصلة بين الأفكار والعواطف والسلوك، وحين ذكر كذلك على أن العلاج المعرفي السلوكي يهدف في النهاية إلى تعليم الناس مساعدة أنفسهم من خلال فهم طرقهم الحالية في التفكير والتصرف، ومن خلال تزويدهم بالأدوات اللازمة لتغيير أنماطهم المعرفية والسلوكية غير القادر على التكيف. فمثل هذا الكلام الذي ذكره الدكتور محمد وغيره من المعاصرين كآرون بيك الذي قال بأن العلاج المعرفي السلوكي يتألف: «بمعناه الواسع من كل المقاربات التي من شأنها أن تخفف الكرب النفسي، عن طريق تصحيح المفاهيم الذهنية الخاطئة والإشارات الذاتية المغلوطة» . وكذا قول بول دبويس: «إذا شئنا أن نغير العواطف؛ فمن الضروري قبل كل شيء أن نغير الفكرة التي أنتجتها، وأن نتبين أنها إما فكرة غير صحيحة في ذاتها أو أنها لا تمس شؤوننا ومصالحنا. «

فهذا الكلام الذي ورد عن المعاصرين حول العلاج المعرفي السلوكي أو الإدراكي، الذي ظهر في ستينيات القرن الماضي، وعرف انتشارا واسعا في السنوات الأخيرة، حيث أصبح النموذج السائد للعلاج النفسي في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول، هذا الكلام أشار إلى مضمونه أبا زيد البلخي في القرن الهجري الثالث في مناسبات عدة، منها وصفه للحيل التي يستعان بها من خارج النفس لدفع المخاوف وأحاديث النفس والوسواس، كقوله: «أن يعد لنفسه من خاصته بمن يثق لمودتهم له وشفقتهم عليه، فيجاربهم ما يجده في نفسه؛ ليعرفوه بطلان ما تحدثه به نفسه وتخيله إليه من الأفكار الرديئة» . وهذا من صميم العلاج السلوكي المعرفي، أي العلاج بكلام الغير، حيث يعتمد على تغيير الأفكار والمعتقدات وبيان خطئها وبطلانها .

كما اعتمد كثيرا على الكلام الذاتي، أي أن يكلم الإنسان نفسه بنفسه، ويحاول أن يقنعها بتغيير الأفكار السلبية وتصحيحها والتخلص من سيطرة الأفكار السلبية والخواطر الرديئة واستعاضتها بأفكار إيجابية ومشاعر جميلة، وهذا قد اعتمده كثيرا البلخي، وخاصة في مناسبة وصفه للحيل الداخلية التي يستعين بها الشخص لدفع الوساوس والمخاوف والأحزان والهموم، وهو أسلوب علاجي معرفي داخلي يحاول من خلاله الشخص ترويض نفسه بجملة من الأفكار؛ قصد دفع الحزن والغم والفزع عنه إذا ما اعتراه شيء منها .
وكثيرا ما جمع البلخي بين الأسلوبين معا، كما في وصفه للاحتيال لصرف الحزن المعروف السبب بقوله: «إنما يحتال لصرفه بحيلتين: إحداهما من خارج والأخرى من داخل. أما التي من خارج؛ فوعظ الواعظين، وتذكير

المذكرين (...) وأما التي من داخل فأبواب من الفكر يروض بها الإنسان نفسه، ويجعلها سلاحا، وعدة لصرف الغم والحزن عن نفسه إذا اعتراه شيء منها لفقد محبوب أو تعزز مطلوب» . فهنا اعتمد البلخي العلاج بالكلام الخارجي عن طريق الواعظين والمذكرين، والعلاج بالكلام الداخلي عن طريق الفكر وتوليد أفكار إيجابية داخلية تذهب عنه ما يعانيه من حزن وغم. فهذا الكتاب، أي مدخل إلى علم النفس الإسلامي سيزداد قوة وجمالا بمثل هذه الإشارات والإضافات التي تروم التأصيل لعلم النفس الإسلامي، سواء التي ذكرها أبو زيد البلخي أو غيره مما يحفظه لنا التراث من دراسات في هذا المجال.

خاتمة.

لقد قدم لنا الدكتور محمد محمود مصطفى عملا غاية في الأهمية حول علم النفس الإسلامي، ينضاف إلى جهود باقي العلماء الذين سبقوه في هذا المجال؛ فعمله هذا يشكل لبنة أساسية تسهم بدورها في بناء عمارة علم النفس الإسلامي. وقد تضمن هذا الكتاب جملة من الحقائق التي استند فيها المؤلف على النصوص الشرعية من جهة، وعلى خبرته الطويلة في ممارسة علم النفس من جهة أخرى، والتي تعد منطلقا للباحثين الذين جمعوا بين علمي الوحي والنفس للبناء عليها؛ قصد الاستمرار في إكمال هذا البناء الذي ينظره كل مسلم مهتم بالعلوم عامة وبعلم النفس خاصة.